الطبيب الذي اعتبر الادب هواية له:

عن «الرقة» وايقونتها عبد السلام العجيلي

عبد الرحمن مجيد الربيعي*

(1)

■ هناك مبدعون ترتبط اسماؤهم بمدنهم وهي في الان نفسه مسقط رؤوسهم، فنجيب محفوظ اقترن اسمه بالقاهرة ومحمد زفزاف بالدار البيضاء وخيري الذهبي بدمشق القديمة وغائب طعمة فرمان ببغداد وصلاح بوجاه بالقيروان وهكذا.

ود. عبد السلام العجيلي هو ابن مدينة الرقة السورية التي تقع في الشمال الشرقي من هذا البلد العربي وعلى شاطىء الفرات قبل دخوله الاراضي العراقية. وهذه الارض الفراتية تشبه بعضها، لا بل انها امتداد متواصل لا يجعلك تحس انك قد عبرت بلدا ودخلت آخر. فالطريق هو الطريق والناس هم الناس واللهجة هي اللهجة حتى انني فوجئت بالمذيعة التلفزيونية رشا العجيلي وهي تتكلم باللهجة العراقية فسألتها ان كانت من العراق وتعمل في التلفزيون السوري فابتسمت وقالت: هذه لهجة المدينة، وهي ابنة اخ المحتفى به د. عبد السلام العجيلي.

ذات يوم كانت هذه المناطق وصولا الى حدود بغداد وخاصة في العصر العباسي من اجمل المتنزهات ومضارب الفرح والسمر والاستجمام حتى ان ابا نواس قال:

واسقني من خمر هيت وعانات

ومن المؤسف انني لا اتذكر الا عَجز هذا البيت الذي يؤكد جمال المدن الفراتية. وهيت مشهورة بنواعيرها وهي على هيئة مراوح عالية تدور فتنقل الماء من الفرات المتخم بمائه الى الاراضي الزراعية.

كنا مجموعة من الادباء العرب جئنا من عدد من البلدان العربية ملبين دعوة اخينا حمود الموسى مدير دار الثقافة بالرقة التي تحمل اسم د. عبد السلام العجيلي وفي قاعتها الكبرى تمثال نصفي كبير له.

والاخ حمود الموس هو الذي انتبه الى اهمية ان تعقد ندوة سنوية عن الرواية السورية وتحمل اسم احد روادها وبغية انجاز مشروعه الذي دعمته وزارة الثقافة ومجموعة من المؤسسات الرسمية والاهلية وكذا رجال الاعمال في المدينة فقد استعان بخبرة بعض الادباء العارفين بالرواية العربية وبينهم الروائي نبيل سليمان الذي عمل مدرسا للغة العربية في احدى مدارس الرقة الثانوية في بدايات حياته العملية لذا لم نستغرب عندما حضر شيخ قبيلة بثيابه العربية، وهو يسأل عن نبيل مؤكدا انه كان تلميذه. واكراما لاستاذه والضيوف فقد اعد لنا وليمة عربية كبيرة في مضافته ونحر لذلك عدة ذبائح ونقل الطعام في صحون كبيرة حيث جلس الضيوف على الارض المفروشة بالسجاد ليتناولوا طعامهم.

تخرج العجيلي من كلية الطب في دمشق عام 1945 وعاد الى مدينته ليفتتح فيها عيادته ولم ينقلها الى اي مدينة اخرى.

وكنا نقرأ قصصه التي ينشرها في المجلات الادبية المعروفة مثل (الآداب) اللبنانية ويذيلها باسم مدينته.

ومن الرقة رشح للنيابة ففاز بها اكثر من مرة كما شغل لاحقا منصبين وزاريين هما الخارجية والثقافة.

وكانت اول قصة ينشرها يعود تاريخها الى عام 1936 اي قبل سبعين سنة.

وظل العجيلي ينطلق من الرقة الى العالم وقد عشق السفر مبكرا وجاب الدنيا وانجز عددا هاما من كتب الرحلات التي تشكل مرجعا مهما كما ان هذه الرحلات شكلت موضوعات لاهم قصصه وروايات.

كانت الرقة المحطة والمرفأ له، رغم بعدها عن العاصمة التي جلب نداؤها جل مبدعي الاطراف والقوى البعيدة الا العجيلي فكان استثناء.

ذكر لي احد الاصدقاء (الرقيين) ان العجيلي بقي يمارس دور شيخ القبيلة بالنسبة لقبيلته ويحرص على ان يقوم بدوره كاملا في هذا المجال. وقد اكتشفت شخصيا من خلال قراءاتي لقصصه وروايات (وذكرت هذا في لقاء مع تلفزة دمشق) ان الرقة مدينة صغيرة من الممكن جدا ان تُستنفد ابداعيا. انها ليست القاهرة بملايينها الذين يقربون من الثمانية عشر او اكثر ولهذا ظلت نابضة حية في الابداع الروائي المحفوظي مثلا، وكأني بالعجيلي وقد ادرك هذا مبكرا لذا شكل السفر محور اهم قصصه وروايات. اي انه ابتعد بها عن الرقة وان كانت نظرته تظل نظرة ابن الرقة وبذا اتسعت مدونته الابداعية.

كما ان مدينة كالرقة ما زالت محكومة بالتقاليد الصارمة فيها الكثير من المحرمات الروائية، وقد اخبرني الروائي والباحث السوري ابراهيم الخليل وهو ابن الرقة ايضا و المقيم فيها والمختص قراءة ونقدا بأعمال العجيلي بأن روايات وقصص العجيلي لا وجود لامرأة واحدة من الرقة فيها!

وهذه ملاحظة مهمة رغم ان رواياته هذه مليئة بنساء من مدن او بلدان اخرى.

لقد اطلق على العجيلي لقب «ايقونة الرقة» وهو هكذا فعلا رغم ان الكبر اقعده في فراشه (ولد سنة 1918) ولذا تعذر عليه حضور حفل الافتتاح التكريمي له واكتفى بارسال كلمة قرئت نيابة عنه. كما قام عدد من الضيوف بزيارته في بيته لتحيته.

(2)

يذكر العجيلي في الاحاديث التي تجري معه (ان الادب بالنسبة له هواية) ولكنه مع هذا انجز فيه اكثر من خمسة واربعين كتابا جمع فيها حصيلة ما عاشه وما رآه ولخص في هذه الكتب تجربته في الحياة والسياسة والطب.

ولنا ان نعرف بأنه وفي بداية حياته السياسية التي سارت بموازاة ممارسته للطب وفوزه بالبرلمان مرشحا عن مدينة الرقة استقال من عضوية البرلمان ليلتحق بجيش الانقاذ طبيبا جراحا وذلك في عام 1948 دفاعا عن الحق العربي في فلسطين.

اي ان ابهة الموقع النيابي لم تصادره فتخلى طائعا من اجل مداواة الجرحى الذين ادرك ان حاجتهم الى طبيب هي أكبر من حاجتهم الى برلماني.

هكذا بدا الامر لي وانا اتوقف عند هذه المسألة تحديدا.

***

عندما وصلت الرقة كان ذلك بعد رحلة طويلة حيث غادرت الطائرة مطار تونس في التاسعة والنصف مساء، ووصلت مطار دمشق بعد منتصف الليل بساعة ونصف تقريبا حسب توقيت دمشق. وكان علي الانتظار ساعتين حتى يحين موعد الطائرة المتوجهة الى حلب التي وصلتها فجرا. وهناك كان في انتظاري اثنان من اسرة الندوة لتمضي بنا السيارة باتجاه الرقة.

وعندما وصلت كانت الساعة تربو على السابعة وبعض الضيوف يتوجهون الى مطعم الفندق لتناول طعام الافطار، وارتأيت ان ادع النوم جانبا واذهب الى غرفتي لاحلق ذقني. ولم يأخذ مني هذا اكثر من نصف ساعة لارافق الضيوف بعد السلامات والعناقات الى مبنى المركز الثقافي وهو مبنى كبير جدا وفيه عدة قاعات للمحاضرات والندوات وتحلم كل مدينة عربية بنموذج مشابه له.

كان النصف الاول من النهار مخصصا لزيارة معالم اثرية وحضارية في المدينة او على مشارفها واهمها اثار مدينة كاملة اسمها «الرصافة» وساعد على لذة التجوال الجو الدافىء والسماء الصافية والشرح المستفيض من خبير في الاثار.

بعد ذلك ذهبنا الى سد الفرات هذا الانجاز الكبير الذي تتباهى به سورية الحديثة وقد انجز ليضم مياه الفرات في بحيرة كبيرة حتى لا تتبدد لا سيما وان الجانب التركي قد اقام سدودا عند منبع الفرات الامر الذي قلل من كمية المياه التي تعطى لسورية والعراق باعتبار النهر مشتركا بينهما.

نسيت وانا اتجول انني لم انم منذ اكثر من ثلاثين ساعة، وكان علي ان اخذ قسطا من هذا النوم اللعين الذي لا بد منه لنتجدد.

***

ضمت قائمة المدعوين لحضور مهرجان العجيلي الاول للرواية العربية عددا من الاسماء المعروفة في كتابة الرواية ونقادها سواء منهم من ساهم ببحث او شهادة او من تمت دعوتهم كضيوف شرف.

وتوزعت الجلسات وعددها سبع جلسات على ثلاثة ايام وساهم فيها قرابة 35 مدعوا، والنسبة الكبيرة من البحوث كانت عن الدكتور العجيلي الامر الذي يجعل من نشر هذه البحوث في كتاب عملا مطلوبا جدا ورغم العديد من البحوث والرسائل الجامعية التي كتبت عنه فان نشر البحوث الجديدة وجلها لادباء من الاجيال اللاحقة لجيل العجيلي عمل مهم اذ انها تشكل اعادة قراءة لهذه الاعمال وفي هذا تجديد وتجدد لها واتمنى على الاخ حمود الموسى مدير دار الثقافة ومن معه ان يسارعوا في طبع هذا الكتاب.

من الباحثين والادباء السوريين ساهم علي زيتون بدراسة مجموعة «الخيل والنساء» وياسين رفاعية كتب عن «الفن الروائي عند العجيلي» ود. مصلح النجار عن «ثباتيات القيم من النص الروائي عند العجيلي» وممدوح عزام «العجيلي وانا» ووليد اخلاصي (الجليل الجميل عبد السلام العجيلي) وابنة اخيه الاستاذة الجامعية شهلا العجيلي (حينما ينقلب السرد على السارد) وبسام بليبل (من ايهاب الشعر الى فضاء النثر) ـ نذكر هنا ان للعجيلي ديوان شعر واحد صدر في بدايات حياته الادبية ود. عبد الله ابو هيف (النقد الخاص بالعجيلي) والروائي نبيل سليمان (الذي حظيت اعماله الروائية بعدد من الدراسات جاءت في الترتيب الثاني بعد تلك التي قدمت عن المحتفى به) فقد قدم موضوعا بعنوان (ابن الرقة) وقدم د. عادل الفراجات (السرد المؤثر والمغير في رواية العجيلي «اجملهن» نموذجا) ويقدم روائي وباحث رقي معروف هو ابراهيم الخليل موضوعا عنوانه «النص التابع» والاذاعية نهلة السوسو قدمت هي الاخرى شهادة حول تقديم القصة والرواية اذاعيا من خلال تجربتها مع ما مر بها من اعمال اهتمت بها وبينها اعمال للعجيلي.

اما من الضيوف العرب فقد قدم د. صلاح فضل (مصر) قراءة لرواية العجيلي «اجملهن» وكاتب هذه السطور بحثا عن توافق تقنيات المقالة والقصة القصيرة عند العجيلي من خلال كتاب «في كل واد عصا» وقصة «مذاق النعل» مع التوقف عند اسبقية العجيلي في الكتابة عن السجن السياسي اذ تعود هذه القصة لعام 1964 وقدم د. عبد المجيد زراقط (لبنان) دراسة عن رواية «المغمورون» البنية والرؤية وهي من بين الاعمال الروائية الاخيرة للعجيلي. اما الباحث فاضل الربيعي العراقي فقد توقف في بحثه عند تجربة الروائي السوري خيري الذهبي. وعنوان بحثه «خالقو الاساطير الجديدة» وللدكتور محمد عبيد الله (الاردن) دراسة عن فن القصة القصيرة عند العجيلي ومن الجزائر قدم بحث للناقدة فضيلة فاروق (فلسطين في ادب غادة السمان) ولسميحة خريس (الاردن) موضوع بعنوان «بمثابة بيان على بيان» وهو مقاربة لاحد مؤلفات الروائي نبيل سليمان النقدية. وتتناول الروائية نعمت خالد تجربة سليمان ايضا من خلال احدى رواياته.

ونشير هنا الى ان البحوث الاخرى التي تناولت اعمال هذا الروائي عديدة ومنها: «رجل من جرماتي» لزهير جبور ود. رضوان قضماتي الذي قرأ احدث اعماله الروائية «درج الليل درج النهار».

وقدم د. جهاد نعيسة قراءة لاعمال خيري الذهبي تحت عنوان «تناسج المجاز والواقع في العالم الروائي لخيري الذهبي». وحظي سليم بركات بدراسة واحدة قدمها الناقد خالد الحسين.

اما الذين قدموا شهادات تتعلق بفنهم الروائي فهم: د. هيفاء بيطار، خليل صويلح، خيري الذهبي، سمر يزبك، فواز حداد، ماجد العويد، كما كانت للناقد الدكتور نضال الصالح دراسة مهمة عن «مساهمات النص الروائي النسائي ـ اصوات التسعينات نموذجا» ومن مصر قدم الروائي عزت القمحاوي موضوعا مهما عن التواصل جغرافيا وابداعيا وكيف عرف العجيلي.

كل هذه الموضوعات نوقشت باريحية بعد كل جلسة من اجل استكمال غاياتها ومراميها.

(3)

لا يدري المرء من اين اشتق اسم «الرقة»؟ وهل هو من الرقة بمدلولها الناعم الجميل؟ يبدو ان الامر هكذا. وقد نقل عن الخليفة العباسي هارون الرشيد قوله «الدنيا اربعة منازل هي دمشق والرقة والري وسمرقند».

وسأقتبس من الباحث الاستاذ محمد جدوع ما اورده في كتابه «التاريخ والعجيلي» ما قاله عن تاريخ الرقة اذ قال «والرقة لم يجهلها التاريخ قبل الفتح الاسلامي لها. لقد عرفها بأسماء عدة «توتول» و«نقفوريوم» ثم «كالينيكوس» في عهد الاسكندر المقدوني وما قبله، كما عرفت باسم «ليونتوبوليس» في العهد الروماني نسبة للامبراطور الروماني ليون الثاني الذي اعاد بناءها».

ويذكر محمد جدوع ايضا: «ان الق الرقة ودورها التاريخي استعيد حينما اغرى موقعها المتوسط والفريد الخليفة العباسي ابا جعفر المنصور الموقع في اشادة وانشاء المدن حيث امر ببناء مدينة حديثة اطلق عليها اسم الرافقة بموقع غير بعيد عن الرقة القديمة على غرار عاصمته بغداد ذات السور المستدير» ويذكر كذلك: «ان لطف مناخها وعذوبة مائها ونقاء هوائها وتوسط موقعها ما بين الشام وبغداد كل تلك الصفات مجتمعة ساهمت في جذب انتباه الخليفة العباسي هارون الرشيد اليها ليعتبرها ويتخذها عاصمة ووطنا له بعدما اثقله جو بغداد السياسي بعد نكبة البرامكة».

اما ما شهدته الرقة في الفترة الاسلامية فنذكر ان معركة صفين الشهيرة جرت جنوبها وهي «معركة الفتنة الكبرى بين جيش علي بن ابي طالب الخليفة الراشدي (رضي الله عنه) وجيش معاوية بن ابي سفيان والي الشام الطامع بالخلافة».

وهناك احداث اخرى منها على سبيل المثال ان صقر قريش عبد الرحمن الداخل عبر نهر الفرات من الرقة بعد ان شهد مقتل اخيه، اضافة الى احداث كثيرة لا تعد ولا تحصى.

وها هي الرقة اليوم هادئة وادعة تنام على اسرارها وما مر بها وكثير منه ما زالت اثاره وبقاياه قائمة.

وقد تسنى لنا ان نزور الضريح الفاره لعمار بن ياسر الذي استشهد في معركة صفين على يد قوات معاوية بن ابي سفيان.

المدينة واسعة وشأنها شأن المدن الفراتية الاخرى تمتد افقيا اكثر منه عموديا ولذا من النادر ان نجد فيها عمارات عالية، وكان فندق «اللازورد» الذي اقمنا فيه يتكون من اربعة طوابق مثلا.

اما الاغاني التي تتردد من الات التسجيل في السيارات والمحلات فجلها اغان عراقية ومعظمها نواحات غناء «البوذية» الجنوبي الشهير وبأصوات جديدة معظمها خرج من اتون الحروب والحصارات والموت البطيء الذي عاشه البلد.

وساعد على انتشار الغناء هذا قرب اللهجتين في العراق والرقة وغيرها من مدن الفرات سواء كانت في الجانب السوري او الجانب العراقي.

في حياة الناس تعتمد الزراعة موردا بالدرجة الاولى، وزراعة الحبوب بشكل خاص، ثم تأتي بعدها التجارة. ولكنها غالبا في المواد المعيشية التي يحتاجها المرء.

لم اجد اشجار النخيل في الرقة، وسألت عنه، ويبدو انه ظل في حوض وادي الرافدين فقط.

وختاما نقول ان احتفاء الرقة بابنها د. عبد السلام العجيلي جاء في سياق تقاليد متوارثة تتمثل باحترام الرموز التي يجاوز دورها حدود المدن التي ينتمون لها فاصبحوا رموزا لوطن وامة.

ونشير بأن اول مجموعة قصصية صدرت للعجيلي كانت بعنوان «بنت الساحرة» في عام 1948 وله ديوان شعري وحيد عنوانه «الليالي والنجوم» وصدر عام 1951 والكتابان صدرا في بيروت التي ستبقى مستحوذة على اصدار ابرز مؤلفاته وبعدها دمشق.

ومن آخر اعماله الروائية «اجملهن» التي صدرت عام 2001.

ومن بين مجاميعه القصصية التي يذكرها القراء والمتابعون بقوة: «قناديل اشبيلية» 1956، «الخيل والنساء» 1965.

اما من رواياته فنذكر: «باسمة بين الدموع» 1959، «المغمورون» 1979، و«قلوب على الاسلاك» 1974، وهي روايته التي اعدت شخصيا اكتشاف مكانته الروائية، وبعد ان كتبت عنها بدأ بيننا تعارف ولكن بالمراسلات فقط.

د. العجيلي لم يهمل الدور السياسي الذي قام به ولذا اصدر كتابا في جزءين وعلى درجة بالغة من الاهمية هو «ذكريات ايام السياسة» والكتاب هذا هو من آخر اصداراته في بداية الألفية الثالثة.

* كاتب من العراق

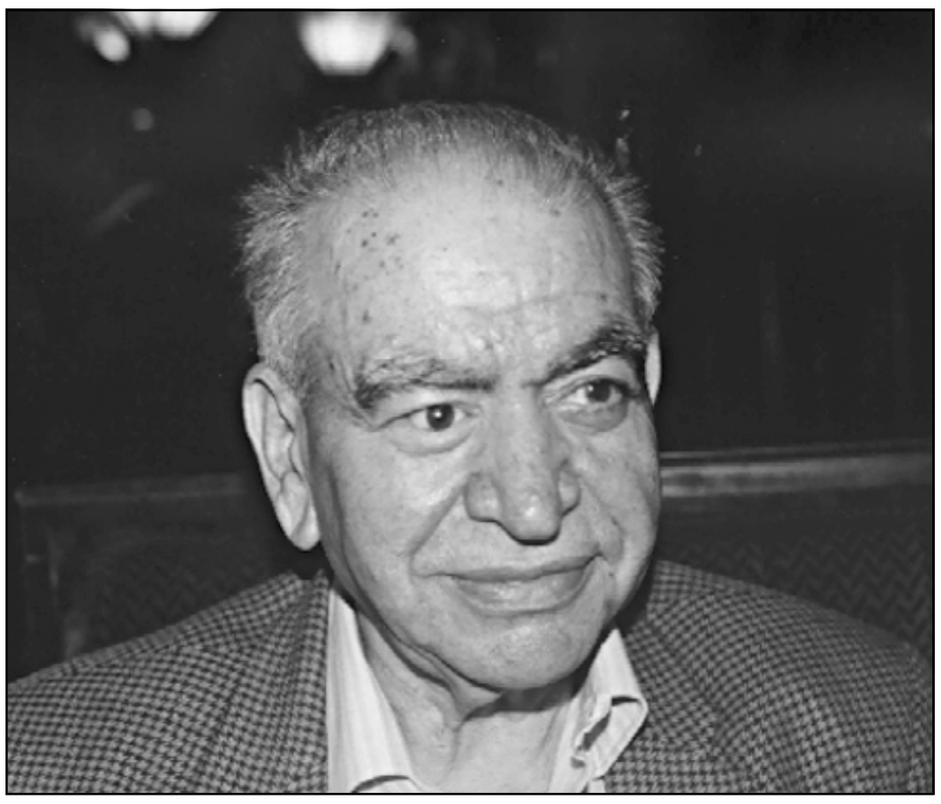

عبد السلام العجيلي (القدس العربي)

شاهد على

بيان ثقافي رقم صفر!

خيري منصور *

■ نعرف أن زمن البيانات قد ولّى، لكن زمن البَيْن هو المقيم، ما أقام عسيب الملك الضليل في هذه البيداء المترامية الأرداف، وبالرغم من أن واقع الحال يتيح لتحالف من مختلف الأضداد أن يتخندق مقابل هذا التسوّس الذي لم يسلم منه المهد والكرسي والتابوت والقيثار، فإن ما سنقوله تحت اسم البيان هو بالفعل في درجة الصفر، بانتظار لحظة المكاشفة التي قد تنتهي إلى مواجهة، ما دام التواطؤ قد بلغ ذروته حتى بين النعجة الأرملة والذئب، وبين العصفور والثعبان.

إن ما كان يحدث موسميا على استحياء بدأ الآن يتحول إلى تشريع وصراخ على السطوح، والثقافة المحتلة، المبتلاة بوكلاء جدد لكولونيالية من طراز جديد تعج بالمستوطنات وثمة تبديد لأهم وأغلى مقتنيات الروح مقابل التهويد، لكن التبديد يمارسه الورثة السفهاء الذين أتاح لهم التاريخ الماكر في أحد منحنياته أن يُفقهنوا العمالة، ويطرحوا لأول مرة على نحو مباشر الجاسوس مقابل الطاغية، وأن قدرنا هو المراوحة بين هذين الشرّين اللذين يتنافسان على صفة الأمرّ والأنكى،

ولم نكن بحاجة إلى احتلال عاصمة كبرى وترهيب عواصم أخرى كي نشم رائحة كريهة يفرزها حبر سام، عتق عقودا كي يلدغ قراء أبرياء، التبس على بعضهم الأمر فظنوا أن الحرية قد تهل من نافذة زنزانة ضيقة وذات قضبان!

فالاحتلال سبق موعده بكثير، ومنذ تلك اللحظة التي وجد فيها الغزاة علاقمة يدلونه على الطريق ويقعون تحت الأسوار بانتظار البرابرة، ولم يكن الضجر هو الدافع لهذا الانتظار، بل الماسوشية المزمنة، واستمراء السياط ومختلف أدوات التعذيب، وكأن الدجاجة أو الفأر يشعران بلذة غامضة وقشعريرة جنسية وهما ينزفان ويتفسخ لحمهما تحت أنياب القط والثعلب، فالهوان يتغذى أحيانا من نقصانه ويطلب المزيد. لكن السادي قدر تعلقه بالسياسة قد يوغل في ساديته ويعتذر عن مواصلة تعذيب الضحية لأن هذا الاقتناع إفراط في التنكيل!

***

لنبدأ أولا من ذلك الشغف الذي أسال لعاب أعشار الموهوبين عن صدّتهم الفطرة البريئة للناس، فاتجهوا إلى قيصر الروم كي يعينهم على ذوي القربى الأشد مضاضة، فأعدوا لحُلل مسمومة أدت إلى تعفن جلودهم، وأقاموا ما أقام عسيب الخذلان والندم إلى الأبد!

فالأدب له أيضا غساسنته ومناذرته، الذين يقعون ككلاب الصيد على التخوم، ومن لا يعثر على قارئ في بلاده عليه أن ينتظر قارئا باللغات الأخرى يفهمه، ويعيد إليه وإلى ناشره المخذول الاعتبار..

و الوصفة النموذجية الآن للكتابة عن وطن أوشك أن يتحول إلى أطلال وليس منه أو فيه.. هي الاستجابة الماهرة والمدربة بافلوفيا لما هو مطلوب من ثلاثة أطراف على الأقل.. غزاة وصلوا على صهوات فولاذية وغزاة استبدلوا هذا بالأحصنة الخشبية وعدو جلس ينتظر غيبوبة الفريسة بعد أن دوخها ليأتي على ما تبقى من نُخاعها!

فالعرب أصبحوا وفق تصنيف سياسي وأيديولوجي جديد، صدر بطبعة أمريكية ملقحة وليست منقحة بمنويات إسرائيلية أقلية في عقر صحرائهم وسلاسل جبالهم وقيعانهم، لكنهم محرومون من حقوق الأقليات، لأنهم مطروحون أكثرية ديمغرافية ومن شاء أن يثير التعاطف مع أطروحاته الملفقة عليه أن يغمض عينيه عما يجري في العراق وفلسطين وما قد يجري في لبنان وسورية، كي يتفرغ للسهر على ذكرى الهولوكست ويعتذر عن شوفينية قومه وما ألحقوه بالتاريخ من أذى!

و يبدو أن ديكارت الجديد الذي تليق صورته وشكوكه بهذا العصر الذي احتكر يقينا واحدا هو حذف العرب من التاريخ، هو صاحب المقولة التي يعدون لتسويقها وهي أنا إسرائيلي إذن أنا موجود أو أنا خائن إذن أنا ديمقراطي أو أنا بانتظار رامسفيلد آخر كي أتحرر من نظامي الديكتاتوري..

لقد تجاوز الصمت كل الحدود عن هذه الاستباحة لوجدان وذاكرة وثقافة، وبلغ الابتزاز ذروته وكأن الحداثة هي توأم العدمية، وما بعد الحداثة هو ما بعد الهوية..

***

اكتب تبعا لتلك الوصفة السحرية كي تجد من يترجمونك إلى عشر لغات بينها العبرية وحاذر أن تجهر بأية واقعة تخص تاريخك حتى لو كانت تمزيق جثة أمك، أو تحويل جسد أخيك إلى غربال من لحم!

اعتذر عن هولوكستات الآخرين. لكن لا تنتظر اعتذارا من أحد عن هولوكستاتك التي تغمر تاريخك كله.. قرنا قرنا وعقدا.. عقدا.. وعاما.. عاما!

صدق كل ما قال أرنست رينان وبرنارد لويس وجورج باتناي واعترف بأن دماغك العربي هو ثمرة جير كما قال المستر طومسون وهو يقشر هذه الثمرة على سفح أحد جبالك.. إن أية إشارة إلى مجزرة تخصك ولم ينشف دم صديقك وجارك وأخيك فيها، هي ضد مصلحتك، وقد تثير تأويلا لا يعود بالنفع على نصك المخصي الداجن والمنزوع الجوهر..

أليس هذا هو المطلوب منا الآن، نحن مثقفي زمان الاحتلال؟ وما دامت المقاومة إرهابا والممانعة شرًا؟

و لن نفاجأ بمن يزم شفتيه اللتين يسيل عليهما صمت لزج أو يهز منكبيه اللذين تتدلى منهما ذراعان مشلولتا الإرادة كذراعي طاحونة أو مروحة، إذا قال إن هذا الصراخ الرعوي لا يليق بالرقصة التي عثرت على موسيقاها بعد انتظار طويل..

***

إنها عودة مُظفرة لاستشراق ما بعد الاستشراق خصوصا في بعده العسكري الذي لم يعد بحاجة إلى طاقية إخفاء، وما بشر به جاك بيرك قبل أكثر من ربع قرن لم يعثر على قابلة تستولده..

و ها هو العربي وفق أدنى تعريفاته متهم إلى أن يبرهن على براءته.. اسمه المنحوت من الأبجدية المطاردة في الموانئ والمطارات تهمة.. وبشرته السمراء المهورة بحزن لا يشبهه سوى حزن الخيل متهمة ونصوصه إن لم تخضعه لجراحة تجميل تهذب أنفها الطويل أو شفتيها الغليظتين فهي أيضا متهمة، وعليه قبل أن يطرحها في مزاد الثقافة الداجنة وبورصة الكتابة المحايدة أن يحررها من أي إيحاء قد يُساء فهمه!

أما القواميس والمعاجم فيجب أن تعرض على رقيب حصيف، وضليع في علم الترويض كي يستأصل منها كل المفردات التي تعني المجابهة، والتحريض على العدوان، لأن الحماقة إذا حاولت أن تصد بمنقارها الهش غرابا من عشها إرهابية والنخلة التي لا تنحني بأعناقها لمن يهزها بصاروخ إرهابية..

و لن يخطر ببال أحد أن ما كتبه جورج أورويل قبل أكثر من نصف قرن هو نبوءة تخص العرب وحدهم، ولا شأن لها بالموروث الأنغلو ساكسوني كله، ما دام الحب يعني الكراهية والسلم هو حرب بوسائل أخرى والصديق عدو والعدو حليف..

***

إن لهذه الوصفات المبتكرة في مختبرات الخيمياء الكولونيالية الجديدة بعدا أنثويا أيضا، فالمرأة العربية المثقفة عليها أن تبدأ من أول السطر.. ومن حيث ينبغي لها أن تنعم بالترجمة العاجلة وتقديم ما تكتبه وثائق سوسيولوجية وسياسية أيضا لترسيخ شعار الاحتلال هو الحل..

وإذا كان لدينا ذكور عرفوا من أين تؤكل أكتاف المستشرقين والجنرالات فإن لدينا نساء تدربن على قضم أصابع إخوتهن وأبنائهن، ليقلن بخطاب مفعم بغبار الحناء لتلك الوصفة السحرية: إن تحرير المرأة في بلادنا يتطلب أولا إعتاقها من الباتريركية العربية، وعليها أن تقدم أطروحة مضادة لإلكترا شرط أن تضيف هامشا عن نمط الإنتاج الذكوري وعن كبت يتغذى بالإشباع، فالشجاعة كلها بدت الآن معجما صغيرا بحجم علبة كبريت، تراوح مفرداته العشرون بين تسمية الأعضاء بأسمائها، وتقديم لقطات ملفقة «كولاج» من أفلام البورنو الميسورة مشاهدتها للجميع، خصوصا في الهزيع الأخير من ليل عربي طويل..

وإذا كانت لدينا كاتبات مبدعات، لا يتذرعن بالتعري لجذب انتباه المارة، فهن مهجورات نقديا، ولا يهاجرن إلى لغات أخرى إلا لماما، فالوصفة المقترحة هي أشبع بعجينة قناع الوجه.. تتألف من صفار البيض أو بياضه لا أدري ومن الليمون أو أي سائل آخر، إنها تحدد الهدف في ثلاث مراحل هي على التوالي: أولا، انتهاك حدود معينة يستدعي على الفور غضب الراديكاليين سواء تعلق الأمر بالعقيدة أو الأعراف. ثانيا: تولي رجم الذات بدلا من الآخر لكن عبر متوالية من الاستعراء المتدرّج. ثالثا: نبذ السياسة لصالح السياحة إذا اعتبرنا شهوة الترجمة سياحة ثقافية خصوصا إذا تعامل معها الآخر كفولكلور أو من الروائح السوداء القاتمة لليالي الألف!

***

ما قلناه حتى الآن ليس بيانا في درجة الصفر بقدر ما هو تحضير أولي لورق أبيض وحبر شحيح السواد، فنحن جميعا في خطر وتحت وابل القصف بمختلف صواريخه، وإن كانت الثقافة العزلاء هي ما يقضم الآن، وما يطحن ويتحول إلى ثريد لغوي. إن الإفراط في الكلام عن فساد السياسة ونظامها العربي الذي هو فوضى بامتياز حجب عنا فسادا آخر، قد يكون بيت الداء، وهو فساد ثقافة لم يسلم حتى الملح من عطنها!

* شاعر وكاتب من الاردن

العدد الجديد من مجلة «ثقافات»:

ملف «الدون كيخوتي» واحتفاء بالفنان شاكر حسن آل سعيد

الرباط ـ «القدس العربي» ـ من عبدالحق ميفراني:

صدر العدد المزدوج الجديد 15 ـ 16 من مجلة «ثقافات» البحرينية، محافظا على تبويبه التحريري المعتاد، المجلة التي أمسى بالإمكان تصفحها على البوابة العنكبوتية وذلك على الرابط: www.thaqafat.uob.bh، احتفت بالفنان الراحل العراقي شاكر حسن آل سعيد وذلك من خلال تزيين العدد برسوماته، وتخصيص ملف فنون بالكامل لتجربته ولشهادات حول أعماله، ولم تخرج افتتاحية العدد عن هذا المسار، فالكاتبة سميرة بن عمو تدعونا الى الفن التأملي من خلال تجربة الفنان شاكر الذي استطاع أن يحدث قطيعة في بيانه التأملي ـ المنشور بالعدد ـ مع السائد النظري ويؤسس للفن ـ التأمل.

في وجهة نظر عربية يتأمل المفكر المغربي عبدالسلام بنعبد العالي: ضد الراهن ـ الفلسفة كتكريس للانفصال، أما الأكاديمي منذر عياشي فيتناول مناهج اللسانيات في الدراسات الحديثة، الكاتب سعيد الغانمي يقارب شعر البريكان، هذا الرائي العراف مقدما باب نقد الخطاب الشعري، والذي تناول فيه الكاتب شوقي بدر يوسف قسطنطين كفافيس وفتنة الاسكندرية.

ديوان «ثقافات» ضم نصوصا شعرية لكل من رون بولتن، بثينة العيسى، ابراهيم الخطيب، ياسين طه حافظ. وفي الذكرى الأربعمائة لولادتها تقدم «ثقافات» ملف حول «دون كيخوتي» شارك فيه الناقد سعيد يقطين بدراسة حول دون كيخوتي والأسطورة الشخصية، والكاتب محمد الداهي التلقي العربي لدون كيخوتي، أما المترجم والباحث عبد الرحيم حزل فتناول ترجمة دون كيخوتي الى العربية من خلال رحلة ومحطتين. ملف دراسات في الجنوسة ضم دراسة النسوية والتفكيكية لديان إلام قام بترجمتها الى العربية المترجم شعبان مكاوي.

النصوص القصصية لثقافات ضمت نصين قصصيين لكل من فؤاد الحلو، ورباب هلال.

حوار العدد استضافت من خلاله «ثقافات» المفكر الطاهر لبيب الذي أكد خلاله أن الخطاب القومي تفكك، والمثقف الملحمي انتهت ملحمته. في باب «مراجعات» يقدم الكاتب عبد المالك أشهبون كتاب ابراهيم عبد الله غلوم الثقافة وإنتاج الديمقراطية، نجاة علي تحتفي بالقيمة في مراجعتها لكتاب جابر عصفور عن القيمة.

ملف فنون قدم الفنان العراقي الراحل شاكر حسن آل سعيد في الذكرى الأولى لرحيله شارك في الملف فريد الزاهي، فاروق يوسف، عمار سلمان داود، محمد العمامري، هيمت محمد علي، إضافة لشهادات مبدعين بحرينيين وعراقيين.

في باب «إنتاج المعرفة» يكتب مسعود ضاهر عن الاستراتيجية اليابانية الجديدة للحوار الثقافي مع العرب، ويقدم عبد الله يتيم كلاوس فريديناند الرومانطيقي الذي أحب العرب والأفغان. في باب الترجمة نقرأ لكيس فرشتيخ الدراسات الغربية حول تاريخ النحو العربي 1969 ـ 1994 ترجمها بوشعيب برامو، وترجمة لأمين صالح لأنان بالكيان عن الشاعر الفرنسي سان بول رو وعالم من حافة الرؤيا.

القسم الانكليزي لثقافات ضم دراسات لكل من محمد الدعمي حول وليام موريس والشرق، وكلير برانداير في تساؤله حول المصادر العربية للقصائد البيزنطية لوليام بيتيس.